"الطريق الطويل والصعب إلى الديمقراطية" -2-

بقلم أبو المعاطى أبو النجا

لم يكن رفع شعار الديمقراطية ، في بداية عهد الرئيس أنور السادات وعملية حرق الأشرطة في ساحة وزارة الداخلية "كديكور" مناسبا للشعار فكرة جادة أو أصيلة كانت إحدى ألعاب السياسة الكبرى، عمد إليها أنور السادات بإيعاز من محمد حسنين هيكل، وكانا في تلك الآونة متوافقين ضد خصوم أقوياء ممن كان يطلق عليهم رجال عبد الناصر، ومن كانوا في ذلك الوقت يملكون مفاتيح القوة في الدولة، ولم يكونوا يحبون هيكل ولم يكونوا يحترمون السادات، وقد فوجئوا به وهو نائب الرئيس يصبح رئيسا للدولة بعد الموت الفاجع والمفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر!

كانت الديمقراطية هي الهدف السادس والأخير في قائمة أهداف ثورة يوليو سنة 1952، وهى الهدف الذى لم يتحقق أبدا لا بالطريقة التى كان يريدها عبدالناصر ولا بغيرها من الطرق لا في عهده ولا في عهود غيره، وكان التلويح بهذا الهدف الحلم في بداية عهد السادات يبدو ساحراً ، وكأن غياب الديمقراطية في الماضى كان هو السبب الأكيد لكل ما حدث من كوارث آخرها كانت هزيمة 5يونيو 1967!

ونجح السادات في سنوات حكمة الأولى تحت هذا الشعار وغيره في أن يتخلص من كل خصومه، وأن يتفرغ لمواجهة أخطر الأمور التى كانت تواجه هذه الأمة ، وهو العدو الرابض على الضفة الشرقية لقناة السويس، ومغامرة مواجهة الجيش الإسرائيلي وسيناء كلها تحت سيطرته تبدو وكأنها المستحيل بعينه!

ربما لم يفكر أحد في ذلك الزمن أن أشياء كثيرة جدا من أهمها القبضة الصلبة التى كان لابد أن تمسك بزمام الأمور في أواخر عهد عبد الناصر هي التى مكنت الجيش المصري وقادته العظام من إعادة بنائه في زمن وجيز، ومن استئناف حرب الاستنزاف، ومن إعالة سكان مدن القناة بعد نقلهم إلى مدن الدلتا وما كان يعنيه ذلك من تصميم على القتال، وحتى لا يكون هؤلاء رهينة في يد العدو الجاثم على الضفة الأخرى من القنال! على الرغم من بيان 30 مارس الديمقراطي الروح الذى صدر بعد الهزيمة لامتصاص بعض السخط الذى كان يجثم على الصدور فلم تكن الديمقراطية في تلك الأيام وعداً من الحاكم ولا حلما للمحكوم ربما تحولت من خلال الروح الوطني إلى فعل صامت هادئ ويد حانية ترطب الجراح أو تضمدها متمثلة فى تعاون أهل الدلتا مع أهل مدن القناة المهجرين ، بإفساح أماكن لهم في القرى والمدن، في البيوت والمدارس والمساجد، في تعاون شركات كبرى مثل شركات عثمان أحمد عثمان وحسن علام ومن يعملون فيها من المصريين مع الجيش لبناء حائط الصواريخ الذى لولاه لما كانت الحرب ممكنه ولا كان العبور ممكنا، في أشياء كثيرة كثيرة حتى تحققت المعجزه فى 6 أكتوبر سنة 1973 بما لها وماعليها!

وتلك قصة أخرى وما جرى بعدها من مفاوضات للسلام انتهت بمعاهدة كامب ديفد قصة أخرى لا علاقة لها بما نهتم به في هذه الصفحات، ربما كانت استقاله أسماعيل فهمي وزير الخارجية أثناء مفاوضات كامب ديفيد لأنه لم يكن موافقا على ما

يجرى وإبراهيم كامل الذى حل محله، والذى كان صديقا قديما للسادات ولم يتردد هو الآخر في تقديم استقالة ربما كانت هذه الاستقالات، هى الأخرى تمثل آخر تجليات الديمقراطية التى كانت يعد بها السادات!

ما حدث يعد ذلك - وربما قبله أيضا - من اتجاه إلى ما سمي بالانفتاح الاقتصادي ثم إلى ما سمي بالمنابر يمين ووسط ويسار كتعبير سياسي يتلاءم مع انفتاح الاقتصاد، هل كان كل ذلك خطوات أولى نحو الديمقراطية الموعوده؟

ما حدث بعد ذلك - وكان في هذه المرة عملا بنصيحة من عثمان أحمد عثمان الغنى عن التعريف هو أن السادات أخرج القوتين المعاديتين بتكوينهما للديمقراطية وهما الإخوان المسلمين واليسار ليلعب بهما لعبة الديمقراطية الموعودة! كان لليسار اليد العليا في اتحادات طلاب الجامعة وفي النقابات وفي الإعلام فاخرج من بقي في السجون من الإخوان المسلمين من أيام عبد الناصر، وسمح لهم بحرية العمل في الإعلام وفي التنافس في الترشيح لانتخابات اتحادات الطلاب في الجامعة وفي النقابات المهنية، ليواجهوا قوى اليسار التى كانت لها اليد العليا في كل هذه المواقع منذ أيام عبد الناصر فهذه هى الديمقراطية ، وليس يفل الحديد إلا الحديد كان لابد أن يأتى بعفريت ليخلصه من العفريت الآخر، وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة البائسة التى تحققت بها الديمقراطية في عهد السادات، صراع دموى حاد بين القوتين المعاديتين بحكم تكوينهما للديمقراطية، أنتهى بطبيعة الحال بفوز الإخوان المسلمين الذين كانوا يحظون دائما بدعم الشارع ويحظون الآن بدعم الدولة، ولكن سخرية الأقدار تمثلت في أن الفصيل المتطرف الذى خرج من الإخوان المسلمين، الذين قضوا على خصوم السادات ، كان هو الذى قضى على السادات نفسه لأنه رأى فى صلحه المنفرد مع إسرائيل خطيئة لا يمكن غفرانها، وجاء عصر مبارك الذى كان جالسا بجوار السادات وهو يقتل ، ليحمل ذلك الإرث الثقيل، وليتعلم منه أعظم الدروس، وكانت خلاصة الدرس ألا يصطدم بالإخوان المسلمين وألا يأمن لهم فاخترع تلك الصيغة العبقرية حيث سمي الأخوان "الجماعة المحظورة" ومع ذلك سمح لبعض أفرادها بدخول مجلس الأمة كمستقلين ليشاركوا في الحياة السياسية كأفراد ، كانت تلك طريقة مبارك في التعايش مع الأخوان أما تعامله مع قتلة السادات من الجماعة الإسلامية وهى الفصيل الذى انفصل عن الأخوان وأنشق عليهم فقد حاكمهم وتم إعدام من أدين منهم وبقي الآخرون في السجون، ولكنهم بسبب من الحكمة أو الحنكة راجعوا أنفسهم وراجعوا أفكارهم، وأقروا بخطئهم أو خطيئتهم حين لجأوا إلى العنف حتى تم العفو عن معظمهم وخرجوا ليكتبوا هذه المراجعات فى كتب ، فهل كان هذا بدوره احد تجليات الديمقراطية في تلك المرحلة، إذ من المعروف أن هذه المراجعة من الجماعة الإسلامية تمت عبر حوارات دارت بينهم وبين مجموعات من الأساتذة من كبار علماء الأزهر وغيرهم، فهل كان مثل هذا الحوار داخل السجون أحد تجليات الديمقراطية في هذه المرحلة أم أنها كانت إحدى تجليات السياسية الديمقراطية التى ألحت بها الولايات المتحدة بعد أحداث 11 سبتمبر الشهيرة على الحكام العرب ، لما رأته من أن هذه الأحداث التى اعترفت بها القاعدة ، إنما جاءت بسبب استبداد وفساد الحكام العرب!

ولم تتذكر الولايات المتحدة وهى تلح على أصدقائها من الحكام العرب بمزيد من الديمقراطية مع شعوبهم دورها في التعامل مع القاعدة حيث استخدمتها في تدمير الحكومة السوفيتيه فى أفغانستان ولما تحقق لها ما أرادت تخلت عن كل وعودها لهم سواء فيما يتعلق بقضاياهم في أفغانستان أو في فلسطين!

وهل كان هامش الحرية التى سمح به مبارك، حيث ترك للكتاب حرية أن يقولوا مايريدون في مقابل أن تفعل حكومته ماتريد ولا اعتراض ولا تدخل من أحد هنا أو هناك!

هل كان هذا الهامش أيضا جزءا من تجليات تلك السياسية الديمقراطية التى ألحت بها الولايات المتحدة! واستجاب لها نظام حسنى مبارك؟

وهل يمكن أن نعترف لها ببعض الفضل في التمهيد لثورة 25 يناير سنة 1911؟!

فى نهاية هذه الرحلة عبر قرن من الزمان، من خلال نظرة طائر هل يمكن على الأقل أن نشير إلى خارطة طريق؟

هل نجرؤ على أن نقول أنها هى ذات الخريطة التى كانت في يد جماعة الأخوان المسلمين ، والتى تعرف الطريق إلى قلب المجتمع، على أن تمضي هذه المرة كل الفصائل التى شاركت في الثورة ، كل يحمل برنامجه في سباق شريف للوصول إلى قلوب الناس وعقولهم في كل قرية ومدينة مصرية! قبل الانتخابات وبعدها فلعله قد أصبح في ضوء هذه الرحلة الخاطفة كم أن الطريق طويل وصعب! وأن الثمرة لن يقطفها من يفوزون في الانتخابات القادمة وحدهم!